

تاريخ الاستعمار الفرنسي بالجزائر وجرائمه

من خلال كتابات الاستاذ عمار بلخوجة

محارق الظهرة، والاستعمار: الجرائم غير المعاقب عليها، أموذجا

الدكتور بليل محمد، جامعة تيارت

مقدمة

يعتبر الكاتب الصحفي عمار بلخوجة من الرعيل الأول للصحفيين الجزائريين، الذين اهتموا بتاريخ الجزائر خلال الفترة الاستعمارية من خلال مقالاتهم الهادفة إلى كشف أساليب الاستعمار الفرنسي في الجزائر، بالاعتماد على مختلف المصادر التي عايشت تلك الأحداث الأليمة التي تعرض فيها الجزائريون لأنواع مختلفة من الزجر والعنف والإبادة الجماعية وصولا إلى التضييق على العاملين السياسي والنقابي للحركات الوطنية والمنحرفين في صفوف النقابات الفرنسية نفسها، كشف عمار بلخوجة من خلال هذه المقالات التاريخية المنشورة في العديد من الجرائد الوطنية خلال فترة الاستقلال و كذا جولاته العديدة لأماكن الجريمة باعتباره صحفيا محققا ومكتشفا لمسرح الجريمة .

ذلك ما سوف نحاول أن نتعرض له من خلال قراءة نقدية لبعض مؤلفاته، والتي اخترنا منها مرجعين هامين تناولا مسار الجريمة الاستعمارية عبر التاريخ الاستعماري الفرنسي في الجزائر وهما:

- محارق الظهرة بمنطقة النقمارية شرق ولاية مستغانم

- الاستعمار، جرائم غير معاقب عليها

ولعلاج إشكالية الجريمة الاستعمارية وانعكاساتها على الجزائريين، مثل ما سردها وحللها الكاتب الصحفي عمار بلخوجة، فقد اعتمدنا على ما قدمه من معلومات أساسية لمقالاته، وحاولنا القيام بمقاربة تاريخية من خلال مقارنة ما ورد في كتاباته من مادة تاريخية بوثائق ودراسات أخرى تدعم ما ذهب إليه عمار بلخوجة في مقالاته العديدة.

1 - طبيعة الاستعمار الفرنسي في الجزائر

إن الاستعمار الفرنسي في الجزائر، دخل إلى الجزائر لتحطيم حضارة شعب قائمة، رغم ادعاءات المنظرين العسكريين الفرنسيين أمثال بوجو وقادته العسكريين الذين ادعوا أنهم جاءوا للجزائر لنشر الحضارة المسيحية. ذلك أن الوقائع الميدانية أظهرت أن الجيش الإفريقي¹ كان ذو طابع انتقامي منذ تواجده بالجزائر وتميز بصفات غير إنسانية، تمثلت في مطاردة السكان والقبائل الجزائرية، لذلك دخلت كتائب هذا الجيش في صراع دموي ضد كل كائن متحرك فوق الأرض الجزائرية، رغم أن الجزائريين دافعوا عن أعراضهم وأراضيهم وبسبب ذلك أضحووا تجربة أمام هذا الجيش الذي قام بارتكاب مجازر رهيبية في حق الجزائريين منذ أن وطأت أقدامه أرض الجزائر الطاهرة². ليفسر لنا هذا السلوك العدواني أن فرنسا لم تحترم تعهداتها للداي حسين بعدم التزامها بالحفاظ على الخصوصيات الدينية والثقافية للجزائريين وذلك بقيامها مباشرة بعد السيطرة على العاصمة والمدن الساحلية، بتحويل المساجد إلى كنائس أو ثكنات لجيشها والسيطرة على أملاك الوقف بإصدار سلسلة من التشريعات التي تبيح لها التصرف بها³.

اتضح معالم الاستعمار وجرائمه في الجزائر منذ البداية، بأن قرر احتلال الجزائر كلها، خاصة مع مجيء بوجو Bugeaud إلى سدة الحكومة العامة سنة 1841، ليطبق سياسة الأرض المحروقة، ذلك ما تناوله الكاتب الصحفي "عمار بلخوجة في دراساته، موضحا لنا طبيعة الهمجية لهذا العسكري الذي استخدم جميع الوسائل لقهر شعب بأكمله؛ بدءا بإتباع سياسة البطش والإبادة ضد مقاومة الأمير عبد القادر وكل القبائل غير الخاضعة لكتائب جيشها الإفريقي⁴.

بما أن بلخوجة صحفي ميداني، فإنه قام بمجهودات كبيرة، لاكتشاف أماكن الجريمة الاستعمارية في المناطق التي ارتكب فيها الجيش الفرنسي جرائمه من خلال دراسات الفرنسيين التي كتبت عن ذلك، أمثال "سانت أرنو" وكذا "بليسييه" حيث قامت جريدة المونيتار الفرنسية بتتبع أخباره مبرزة دوره في القضاء على القبائل المتمردة وكتاب ومؤرخون آخرون أشادوا بدور هذا الجيش في فرض الانضباط والاستقرار بالجزائر أمثال "أميل فليكس غوتتیه" و"جوليان" و"مايسيرو" وغيرهم، وآخرون حللوا طبيعة الجريمة المنظمة المرتكبة في حق الجزائريين ورصد

خطوات الجيش الإفريقي من خلال الوثائق المنشورة من قبل قادة هذا الجيش، أمثال راوول بوسكي في المجلة الإفريقية وريتشارد في دراسة له عن منطقة الظهرة⁵.

وتطرت دراسات جزائريين معاصرين لمأساة بعض القبائل الجزائرية التي تعرضت للحرق والإبادة خلال القرن التاسع عشر، أمثال مصطفى الأشرف في دراسة له عن طبيعة الاستعمار حول المجتمع والأمة في الجزائر⁶. وكذا بعض الأفلام الوثائقية المعاصرة لأحد السنمائيين من مستغانم السيد "عبد الرحمان مصطفى" الذي أعاد بناء الأحداث التاريخية لمحرق غار الفراش حيث ذكر الكاتب الصحفي عمار بلخوجة أن اكتشاف المعالم الجغرافية لهذه المحرقة، كان بمساعدة هذا السينمائي⁷.

ومن هذا المنطلق، فإن "عمار بلخوجة"⁸، استطاع في نظرنا من الإحاطة بجرائم الاستعمار ومعرفة خباياها من خلال اعتماده على وثائق ومقاربتها ببعض الدراسات التي تطرقت لهذا الموضوع وتتبعه مظاهر الجريمة الاستعمارية في العديد من دراساته الميدانية⁹.

ويمكننا أن نستخلص أيضا من خلال كتابه حول الاستعمار، جرائم غير معاقب عليها، طبيعة الاستعمار الفرنسي القاسية وغير الاخلاقية في تسيير الشعوب المحتلة وعدم احترام خصوصياتها الحضارية والثقافية، معتمدا على أسلوب الاخضاع بالقوة وعدم قبول أية معارضة في وجه احتلاله للجزائر، بمعنى أن الاستعمار الفرنسي جاء إلى الجزائر لمحو الشخصية الوطنية منذ الوهلة الأولى للتواجد العسكري الفرنسي بالجزائر مرتكبا جرائم لا يمكن تخيل بشاعتها بحرق قبائل اكملها بالشلف كالصبايحية وقبلها بالبليدة بقبيلة العوفية ثم قبيلة أولاد رياح بالنقمارية شرق مستغانم ثم واصل الاستعمار الفرنسي جرائمه التي فضحت وجهه القبيح خلال القرن العشرين، رغم انتهاء المقاومات المسلحة، حيث واجه الشعب الجزائري المسالم والمعبر عن رفضه للاستعمار بواسطة العرائض والاحتجاجات السلمية، فكانت جرائم فرنسا ماثلة للعيان في مايو 1945، قبلها وبعدها في جرائم عديدة ضد الجزائريين أحزابا سياسية من خلال البطش بمناضليها وقتلهم وسجنهم دون محاكمات، وهذه الجرائم التي تطرق بلخوجة لعينات منها، نقلا عن مصادر فرنسية من خلال وثائق أرشيفية ومقالات لجرائد استعمارية وجرائد الأحزاب وطنية¹⁰.

2- أهم خصائص الجرائم الاستعمارية من خلال كتابات الصحفي الكاتب عمار بلخوجة
تناول الكاتب الصحفي "بلخوجة" الجريمة الاستعمارية في الجزائر، محللا أساليبها واصفا طبيعتها الاجرامية من خلال العديد من الدراسات، حيث قمنا باستنطاق بعضها وقراءة ما ورد فيها من مادة تاريخية، استطاع من خلالها الباحث من إيصال المادة العلمية إلينا، حيث اخترنا نماذج من دراساته كآلاتي:

أ - تحليل ما ورد في كتابه محارق الظهرة:

Les enfumades Du dahra ,les 1000martyrs des ouledRyah (19Juin 1845

اعتمد الكاتب عمار بلخوجة كثيرا على حوليات بليسييه دي رينود Pélissier de Raynaud في مجلده الثالث الخاص بما وقع في مغارة أولاد رياح من وجهة نظر العسكريين الفرنسيين¹¹. واعتمد أيضا على ما ورد في الدراسة الهامة الموثقة والمعتمدة على أرشيف وزارة الحربية الفرنسية لروولبوسكي بالجملة الأفريقية لسنة 1907، المجلد 51، وسبق لنا أن قمنا بدراسة حول نفس الموضوع عن محرقة غار الفراشيع، نقلا عن المصادر الفرنسية، خاصة أرشيف وزارة الحربية بفانسان وكذا الجرائد الفرنسية المعاصرة لهذه الأحداث¹². حيث ذكرت هذه المصادر الطبيعة الوحشية والانتقامية للماريشال بيجو وقادته العسكريين الذين برروا جرائمهم بطبيعة الحرب التي لا تخضع للقوانين الإنسانية من وجهة نظرهم في الدفاع عن أنفسهم أمام المناقشات البرلمانية وتحقيقات وزير الحرب الفرنسي "سولت Soult"¹³.

وحاول الباحث "بلخوجة" مقارنة بين هذه المحرقة ومحارق أخرى، أرتكبها ضباط الجيش الفرنسي المتواجدين تحت إمرة بيجو، خاصة بمنطقة الشلف بالصيحية في أوت 1844 التي أرتكبها الضابط كافينياك Cavaignac وأخرى أرتكبها النقيب سانت أرنو Saint Arnaud بحرق أكثر من 500 جزائري بمنطقة عين مران " رابيليه سابقا بتاريخ 08 أوت 1845. وكان هدف بيجو وقادته العسكريين من هذه المحارق إجبار الأمير على الاستسلام وإخضاع القبائل المتمردة بقوة السيف والبطش وأسلوب الأرض المحروقة.

ولهذه الغاية تباهى بيجو بأفعال ضباطه وأمرهم بالقضاء على كل حركة تمرد مهما كان شكلها وطالبهم باقتداء كافينياك بسحق هؤلاء المتمردين بحرقهم كالثعالب واعتبر بليسييه في رده

على هذه المجزرة بأن جلد طبل الجنودنا أغلى ثمننا في أعيني من جلد هؤلاء البؤساء أو المتمردين من خلال النص الأتي بلغته الاصلية¹⁴ :

« La Peau d'un de nos Tambours avait plus de prix à mes Yeux que la Peau de tous ces Misérables »

وحسب الكاتب بلخوجة، فإن بليسييه قام بتبني استراتيجية ييجو وصاحبه كافينياك وغيرهم لإخضاع القبائل الجزائرية، وفي نفس الوقت يصعد بلخوجة مع الزمن ليقارن بما حدث للجزائريين في قلمة وخراطة وسطيف في مايو 1945، مركزا على ميدان الجريمة بإشراف بليسييه نفسه، عليها من أجل إتمام المجزرة أو الهليكوست على الطبيعة ومنع قبيلة أولاد رياح من الخروج من المغارة وتهديدهم بربع ساعة الأخير، بمعنى أنه أوقف كل عملية تفاوض رغم تدخل قياد المنطقة، لكن بليسييه أصر على ذلك، و كانت النتيجة حرق واستشهاد أكثر من 1000 جزائري، وبالتالي كانت مأساة حقيقية، حاول من خلالها بليسييه تقديم درس قاس لكل القبائل المتمردة، حيث تعرض بلخوجة إلى ذكر تفاصيلها وتداعياتها نقلا من المصادر السابقة الذكر¹⁵.

وقارن بلخوجة هذه الجرائم بما وقع للمثقفين الفرنسيين المؤيدين للثورة أمثال موريس أودان الذي تعرض للتعذيب من قبل الطباط "شاربونييه" و charbonnier كذا طريقة اغتيال العربي بن مهدي من قبل قائد المظليين "بول أوساريس" Paul Ausseress¹⁶.

إنها مقاربات متماثلة في طريقة الجريمة، ولكنها تختلف من حيث البشاعة والحجم، إذ تعتبر محرقة أولاد رياح في نظرنا بداية كشف الوجه الحقيقي لفرنسا الاستعمارية، بينما ما وقع خلال القرن العشرين وخاصة خلال الثورة التحريرية، جاءت نتيجة طبيعية للأسلوب الاستعماري الذي عرفه الجزائريون، بينما قبيلة أولاد رياح لم تعهد ذلك، بل تفاجأت بحجم هذه المحرقة ولم تتخذ الاحتياطات اللازم، وكانت تعتبر لجوئها إلى المغارة أمانا لها، بينما ما وقع من جرائم قد ذكرها بلخوجة فيما بعد كانت معروفة للجزائريين، وبالتالي فتاريخ الجرائم عند الاستعمار الفرنسي أضحى معروفا لدى الجزائريين أكثر من غيرهم لأنهم ألفوه وتيقنوا منه، ذلك ما جاء من مواقف للأحزاب الوطنية خلال مجازر ماي 1945 بدعوتهم، للحنذر من المناورات الفرنسية للقضاء على الجزائريين ونشاطهم السياسي . ونعتقد أيضا أن هذه الجرائم سلسلة متصلة ببعضها البعض، لذلك ركز عمار بلخوجة على الطابع الإجرامي للجيش الفرنسي عبر تاريخه

الملوث بالدماء والحرق والإبادة الجماعية¹⁷، ما نعتبره منهجا واقعيا في ربط الأحداث فيما بينها، رغم تباعد الزمن بين محرقة غار الفراشيح وجرائم فرنسا خلال الثورة التحريرية .
وأهم مزايا دراسة بلخوجة أنه أرفقها، بملاحق لقصيدة شعرية شعبية "الشعر الملحون" لصاحبها الشيخ خالد موهوبي، تطرق فيها لمحرقة الظهرة ومعاناة سكان قبيلة أولاد رياح ونتائج هذه المجزرة على الحالة النفسية للجزائريين وأوضاعهم الاقتصادية الاجتماعية¹⁸ .
نستخلص في آخر تحليلنا لكتابه الخاص بمحارق الظهرة، أن الكاتب الصحفي عمار بلخوجة، اجتهد كثيرا في وضع مقاربات تاريخية عن مجازر الاستعمار الفرنسي في الجزائر، مبديا صدمته منها؛ والتي خلفت أثارا نفسية عميقة على كل جزائري، قد اطلع على وحشية الجيش الافريقي، وقدم لنا مقاربات أخرى لجرائم فرنسية، قد وقت في نفس العصر مع اختلاف الفاعلين، مثل ما وقع في طاقين بالعاصمة المتنقلة للأمير عبد القادر وجرائم أخرى أتت لاحقا خلال القرن العشرين وأثناء الثورة التحريرية.

ومما لاشك فيه أن جرائم الاستعمار هي نفسها، عبر تاريخه الاستعماري للجزائر وأن أول محرقة وصلت اخبارها للصحافة الفرنسية والأوربية وناقشها البرلمان الفرنسي ووردت في نشرة المناقشات البرلمانية *Débats parlementaire* في سنة 1845 ونقلت تفاصيلها جريدة المونيتور الفرنسية وجرائم أخرى وقعت قبلها وبعدها لم تحظ بنفس الانتشار، بسبب تكتم الجيش الاستعماري من نشر أخبارها خوفا من العار، لأن فرنسا كانت تتشدد بالحريّة و الديمقراطية!

ب- تحليل كتاب: الاستعمار في الجزائر جرائم غير معاقب عليها

Colonialisme ,les Crimes Impunis , Histoire, ed , Alpha , Alger 3013 ,218 pages

إن هذا المرجع الهام الذي ألفه الكاتب الصحفي عمار بلخوجة، عبارة عن مقالات كتبها بعدة جرائد وطنية خاصة بالمجاهد، معتمدا على نقل حيثيات الجريمة الاستعمارية من مصادرها، الأصلية كالوثائق الأرشيفية المتواجدة بمصلحة الأرشيف بولاية وهران وسجلات مداولات المجلس العام بوهران ومقالات لمناضلين حزبيين بحركة الانتصار للحريات الديمقراطية

وحزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري من خلال جرائد هذه الأحزاب، أمثال الجزائر الحرة والجمهورية الجزائرية وكذا جرائد المعمرين أمثال صدى وهران.

ارتبطت أحداث هذه المقالات بإشكالية التواجد الاستعماري في الجزائر منذ سنة 1830 إلى غاية سنة 1962، وركز الكاتب الصحفي على جرائم الاستعمار الفرنسي خلال القرن العشرين وختم كتابه بدراسة نقدية للاستعمار الفرنسي والعنصرية في الجزائر¹⁹.

ويمكن تصنيف مقالاته حسب محورين كبيرين هما:

- نماذج من جرائم الاستعمار في الجزائر خلال القرن العشرين

- الاستعمار والعنصرية: وهي دراسة معمقة لتقييم نقدي لتواجد الاستعمار في الجزائر وإفريقيا عموماً.

ب1- بالنسبة للمحور الأول: تطرق فيه عمار بلخوجة لنماذج من جرائم الاستعمار غير المعاقب عليها بالعمالات الثلاثة الجزائرية: وهران والجزائر وقسنطينة، حيث تشابهت طبيعتها الاجرامية ونفس فاعلها من قوات الأمن الفرنسية بأوامر حكامها العامين وولاتها وشيوخ بلدياتها، الذين اتبعوا نفس الأسلوب الاستعماري، المتمثل في القتل والسجن التعذيب وإبادة الجزائريين العزل كآلاتي:

- مجزرة زيرلدة: تمثلت في إبادة جماعية لجزائريين داخل معتقلهم سنة 1942، تابع للبلدية الأوربية باعتقال حوالي 40 جزائري، سبق لشيخ البلدية واللجنة الأمنية لهذه البلدية باحتجازهم، وكانت بلدية زيرلدة منطقة استراتيجية للاستيطان الأوربي، واتبع المجلس البلدي الذي يغلب عليه العنصر الأوربي، أساليب العنصرية في حق 2000 مسلم جزائري يقطنونها.

وحسب ما ورد عند "عمار بلخوجة"، فإن شيخ بلدية زيرلدة المدعو "دونيسفوكاد Denis Foucade"، قام بتاريخ 01 أوت 1942 بعملية صيد ومطاردة الفلاحين الجزائريين من عملهم وتوقيف بعضهم واعتقالهم بمكان لا توجد فيه التهوية ولم يسمح لسكان المنطقة من تحريرهم، إلى غاية اختناق العديد منهم؛ ولم يكشف عن ملابس هذه الجريمة، إلا بعد تدخل مناضلين ومنتخبين من أحزاب الحركة الوطنية والتطرق لها في صحافتهم، حيث تمّ

إنقاذ 13 شخص من الموت واكتشاف 25 جثة لهؤلاء الضحايا، وتواطأت الأجهزة الأمنية مع رئيس هذه البلدية من خلال سكوّتها وعدم كتابة تقارير مفصلة عنها²⁰.

وقد اعتمد " بلخوجة " على مصادر عديدة حول هذا الموضوع، منها :

- مقال لأحد المناضلين الصحفيين المدعو " عبد القادر سفير" بجريدة "إقاليتي" Egalité بتاريخه 16 أوت 1946 لحثيات هذه الجريمة الفظيعة في حق الجزائريين من خلال دعوة شيخ البلدية العنصري الذي استخدم العنف والعنصرية ضد الجزائريين²¹.

- مقال آخر لسفير عبد القادر خلال فترة الاستقلال نشر بالثورة الإفريقية بتاريخ 26 فبراير 1987، تناول فيه أحداث زيرلدة، من حيث الأسباب والنتائج، فشهادة هذا المناضل ذات قيمة تاريخية بإعادة بناء هذه الحادثة التاريخية بعد الاستقلال بناء على ما سبق له نشره بجرائد الحركة الوطنية، وأبرز أهمية ما كتبه في جريدة الإقاليتي التي تحولت فيما بعد إلى جريدة "روبليكألجريان"، وأن بلخوجة أعاد نشر مقاله الذي ينتقده بسبب أنه نقل معلومات عنه من هذه الجريدة دون ذكر إسمه، وهي في نظرنا تواضع الصحفي بلخوجة ومهارته العلمية والمنهجية في نقل المعلومة الموثقة من مصادرها الأصلية²².

- جريمة ديشميا (Descmya) (ببلاد القبائل بضواحي "سور الغزلان" وكانت هذه الناحية عبارة عن دوار بثلاثة عروش، حسب شهادة شهود قابلهم عمار بلخوجة بعد الاستقلال بتاريخ 08-09-2003، حيث قام هذا الصحفي بقطع مئات الكيلومترات من تيارت نحو ديشميا لمعرفة أحداثها التي ذهب ضحيتها ستة جزائريين بتاريخ أبريل 1948 خلال حملة الانتخابات للجمعية الوطنية الجزائرية وهم من عرش بن خوجة، حيث قام حاكم البلدية المختلطة أو مال (سور الغزلان حاليا) بالضغط على السكان للالتحاق بمكاتب الاقتراع لصالح ممثل الإدارة، وبسبب عملية التزوير التي انتهجها الحاكم العام "مارسيل إدموند نايجلان Marcel Edmond Naegelen" قد انتفض سكان المنطقة ضد السياسة الاستعمارية برفض المشاركة والاشتباك مع قوات الأمن الفرنسية، حيث استخدمت ضدّهم الذخيرة الحية، مما نتج عنه سقوط ضحايا جزائريين، واعتقال آخرين وفرض غرامات عليهم ومنعهم من حقوقهم السياسية والمدنية، واعتمد الاستاذ بلخوجة على مجموعة من الوثائق ومقالات الجرائد المعاصرة للحدث²³، منها الجمهورية

الجزائرية لسنتي 1948 و1949، واعتبر عمار بلخوجة الحاكم العام نيجلان من خلال أفعاله، أنه كان عدوا للجزائريين وأحزابهم الوطنية²⁴. و أرفق مقاله بمجموعة من الملاحق الهامة نقلها عن جريدة روبروبليكألجريان، تناولت حقيقة هذه الجريمة في حق جزائريين عبروا بطريقة سلمية عن رفضهم لسياسة تزوير الانتخابات .

- أحداث دوار سيد علي بوناب بالقبائل الكبرى في أكتوبر1949: تعرض سكان هذا الدوار لعملية قمع واسعة، بسبب قيام الدرك الفرنسي بالبحث على أحد الهاربين من العدالة الفرنسية، حيث قامت الفرقة الأمنية الفرنسية بالعبث بالأغراض والأشخاص وحرقت مشاتي الجزائريين وماشيتهم، حيث اضطر العديد منهم إلى مغادرة المنطقة ونظرا لعدم تمكن الدرك الفرنسي من قبض الجاني الهارب، استخدموا أساليب انتقامية ضد السكان العزل واستغلال المواطنين ماديا .ورغم احتجاجات أحزاب الحركة الوطنية وعرض القضية على مستوى البرلمان الفرنسي وبالجمعية الجزائرية وبالمجلس العام للجزائر، فإن الجريمة المرتكبة في حق الجزائريين، ظلت بدون عقاب حسب تحقيقات الصحفي عمار بلخوجة الذي اعتمد على عدة مصادرة في نقله لأحداث منطقة سيد عل بوناب، وتطرق إلى تجاهل الحكومة العامة لهذه الأحداث من خلال زيارة نايجلان للغرب الجزائري مقدما دعما ماديا ومعنويا لغلاة المستوطنين²⁵.

- دراسة عن قمع الحركة العمالية بوهران :تطرق الباحث في هذا المقال إلى نشاط الحركة النقابية بوهران والقمع الاستعماري المسلط على المناضلين الجزائريين خلال احتفال العمال الجزائريين، المنضويين تحت الكونفدرالية العامة للشغل CGT المدعومة من قبل الحزب الشيوعي الجزائري وتعاطف مناضلي حركة الانتصار للحريات الديمقراطية معها بوجود عمال منخرطين ينتمون إليها، بتاريخالأول مايو 1952²⁶.

وقد اعتمد الباحث في نقله لهذه الأحداث وإعادة تركيبها على جرائد معاصرة للحدث، تمثلت في جريد الجمهورية الجزائرية République Algérienne وكذا جرائد التيار اليساري "أورونروبوليكان"Oran Républicain المحلية وجرائد المتربول اليسارية أمثال لوموند Le Monde وليبارتيLiberté وغيرها، حيث تمثلت وقائع هذه الاحداث بقيام والي عمالة وهران بمنع أنشطة العمال والأحزاب الوطنية خلال ذكرى احتفال العمال لسنة 1952 لدواعي أمنية،

ولكن الحقيقة تتمثل في تخوف مسؤولي العمالة من احتجاجات العمال ومطالبهم السياسية والاجتماعية ورفع الغبن عن الجزائريين .

وجاء هذا المنع على خلفية نشاط أعضاء جزائريين في مداولات المجلس العام بوهران، ينتمون للأحزاب الوطنية، تطرقوا إلى مشاكل الجزائريين وحرمانهم من حقوقهم السياسية؛ مما أغضب والي هذه العمالة ليقوم بإصدار هذا القانون التعسفي، الذي يمنع العمال الجزائريين والأوربيين المتعاطفين مع الجزائريين من رفع مطالبهم والتعبير السلمي عن انشغالهم اليومية²⁷ .

وهدد والي العمالة العمال المحتجين الأحياء العربية بالطرد والسجن، وهي أساليب مخالفة للعمل الديمقراطي ووقعت الأحداث في هذا اليوم بين قوات الأمن الفرنسية والعمال الجزائريين وممثليهم، وارتبطت هذه الاحتجاجات بمناسبة انتخابات المجلس العام وعملية تزوير الانتخابات، باعتبار أن هذا المجلس بمثابة برلمان محلي يناقش جميع قضايا السكان. واعتمد أيضا الاستاذ عمار بلخوجة في تحليله هذه الأحداث على ما ورد في مداولات المجلس العام لعمالة وهران وجريدة إيكو دورون اليمينية Echo d'Oran²⁸ .

– مقال آخر خاص بأحداث ندرومة الدموية في 15 أكتوبر 1953

اندلعت مواجهات بين مناضلين من حركة الانتصار للحريات الديمقراطية وقوات الأمن الفرنسية بسبب قيام هذه الأخيرة باعتقال أحد المناضلين الذي كان يقوم بتوزيع جريدة الحزب، فتم إطلاق النار على المحتجين المطالبين بإطلاق سراحه، بتاريخ 15 أكتوبر 1953 وإصابة بعضهم.

اعتمد الكاتب الصحفي عمار بلخوجة على ما ورد في مداولات المجلس العام لشهر أكتوبر 1953، التي رافع فيها ممثلي حركة الانتصار عن هؤلاء الضحايا الجزائريين وكذا جرائد "إيكو دورون" و"أورونوبوبليكان"²⁹

وفي دراسة لنا حول هذه الأحداث، اعتمدنا على وثائق أرشيفية خاصة بمراسلات من قبل شرطة الاستعلامات إلى والي عمالة وهران حول هذه الأحداث³⁰ .

ألقى الكاتب مقاله بمجموعة من الملاحق الخاصة بالأحداث نقلا عم جريدة "أورونوبوبليكان" Oran Républicain ووثيقة خاصة باحتجاج حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، بتاريخ

نشرت بجريدته ألبيري ليهير *Algérie Libre* بتاريخ 26-02-1954، وهو ما يمثل في نظرنا إحاطة الأستاذ بهذه الأحداث وأعاد بناء وتركيب الحادثة التاريخية من خلال اعتماده على الوثائق الأصلية التي تناولت الأحداث عن قرب .

ب² -المحور الثاني الذي تناوله في مؤلفه الثاني الحاص بالاستعمار، جرائم غير معاقب عليها

اخترنا عينة ثانية في دراستنا الخاصة بالقراءة النقدية لكتابات الصحفي الكاتب "عمار بلخوجة"، تمثلت في قيامه بمقال مطول في آخر كتابه عن دراسة تقييمية للاستعمار الفرنسي بالجزائر منذ الاحتلال إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية الجزائرية، حيث تتبع الكاتب العديد من الأحداث التي صنعت الجريمة الاستعمارية في الجزائر، وشكلت أحداثا أليمة تعرض لها الجزائريون، عبر التاريخ الاستعماري الفرنسي ببلادنا. وظلت هذه الجرائم بدون عقاب ولا محاسبة إبان التواجد الفرنسي بالجزائر بسبب عدم مبالاة الإدارة الاستعمارية بمشاكل الجزائريين ومطالب ممثليهم بالمجالس المنتخبة واعتبارهم مواطنين من درجة دنيا، وليس الحق في الدفاع عن السكان الجزائريين الذي يمثلونهم، بل أن أصواتا من الفرنسيين اليساريين، المنضوين في الحزب الشيوعي الجزائري والنقابات الفرنسية والمثقفين المؤيدين لعدالة القضية الجزائرية، لم يسلموا هم الآخرون من الجريمة الاستعمارية، حيث قدم لنا الاستاذ بلخوجة نماذج منها أمثال مورييس أودان وغيرهم .

وقد حرر الكاتب هذا المقال بتاريخ شهر مايو 1993، مبينا طبيعة الجريمة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، منبها إلى خطورة نسيانها بالسكوت عنها، لذلك جاء مقاله في هذه الفترة الحساسة التي دخلت فيها الجزائر في أوضاع سياسية معقدة، بسبب التراكمات التاريخية والادعاءات الفرنسية بخصوص تاريخ الجزائر. وقد كتب هذا المقال قبل أن يقوم المشرع الفرنسي في شهر فبراير 2005 بإصدار قانون يمجّد فيه الاستعمار في الجزائر، وهي وصمة عار في جبين المشرع الاستعماري؛ الذي دأب منذ الاحتلال الفرنسي إلى اعتبار التواجد الاستعماري بالجزائر إنجازا حضريا، وسبق لنا في حصص إذاعية عديدة بتيارت ومستغانم تحليل الطبيعة الإجرامية للجيش الاستعماري وإدارة الاحتلال في الجزائر وأنجزنا عملا أكاديميا، خاصا

بالمؤسسات الاستعمارية حول طبيعة المشرع الاستعماري الذي كان في خدمة الاستعمار الفرنسي في الجزائر³¹.

4 - خلاصة تقييمية حول كتابات الكاتب الصحفي عمار بلخوجة

إن ما أنجزه الكاتب الصحفي من دراسات عديدة، خاصة في المجال التاريخي، تجعل منه باحث من الرعيل الأول الذي كرس جهوده من أجل اكتشاف الجريمة الاستعمارية، عبر دراسات ميدانية بحث طويل عن الوثائق التاريخية بدور الأرشيف، خاصة أرشيف ولاية وهران وكذا تحري الحقيقة التاريخية من شهود العصر بالتنقيب والحفر عن المادة العلمية من خلال جرائد ذلك العصر ومحاورة بعض الشهود الأحياء، الذين عاصروا تلك الأحداث المؤلمة التي عايشها الجزائريون تحت نير الاستعمار الفرنسي.

وأن الأحداث التي قمنا بتلخيصها والتعليق عليها من خلال مؤلفين هامين، تطرقا لحقيقة الجرائم الاستعمارية المتمثلة في محارق الظهرة، وما أدرك من الحقيقة البشعة، لهذه الجريمة التي وقعت أمام أعين الجزائريين وكذا عساكر الجيش الإفريقي والتي هزت الرأي العام الفرنسي والأوروبي وسجلتها الأقلام النزيهة، واحتفظ لنا الأرشيف الفرنسي نفسه بملاحظات هذه الجريمة التي كانت أول هيليكوست على الطبيعة في الفترة المعاصرة؛ قبل أحداث الحريين العالميتين، وبذلك فالباحث عمار بلخوجة، تأثر أيما تأثر وهو ينقل هذه الأحداث المريعة ويرحل إلى مكان الجريمة بغار الفراشيح، هذه المنطقة التضاريسية الصعبة المتواجدة بجبال الظهراغربية، التي كانت موطن قبيلة أولاد رياح بالنقمارية حاليا شرق مستغانم والتي خلدها المخرج السنمائيالمستغانمي، بفلم وثائقي سيظل يروي قصة جريمة لا يمكن محوها من التاريخ ووصمة عار في جبين فرنسا الاستعمارية ببلادنا، وأن عمار بلخوجة خلدها هو الآخر من خلال قصيدة للشاعر ميهوي في آخر مؤلفه الخاص بمحارق الظهرة، تتكون من واحد وسبعون بيتا من الشعر الملحون، إضافة إلى الشعر الذي لازال يحفظه أبناء المنطقة إلى اليوم عن هذه الجريمة، تروي مأساة شعب بأكمله من خلال هذا النموذج من الجريمة الاستعمارية³².

والمؤلف الثاني، تناول فيه الكاتب الصحفي مجموعة من المقالات التي تؤرخ للجرائم الاستعمارية في الجزائر خلال القرن العشرين بدراسته لعينات حقيقية، تعرض من خلالها

الجزائريون لأنواع من الضغط السياسي والبطش الجسدي والإعدامات والقتل الجماعي، تعتبر كلها جرائم في حق الإنسانية، ما حاول الباحث إيصاله إلى القارئ، بأن هذه الجرائم ظلت بدون عقاب ولا حساب، بسكوت الحقوقيين الفرنسيين والأجهزة القضائية الفرنسية من التحقيق فيها جدياً، بل تمت محاكمة بعض فاعليها شكلياً، سرعان ما تم تبرئتهم واعتبرت الإدارة الاستعمارية في الجزائر ممثلة في الحكومة العامة ومختلف أجهزتها أنها في حرب مع الجزائريين .

إن ما تعرض له الباحث بلخوجة من تحليل وعرض ملاحق من مصادرها الأصلية، تعتبر في نظرنا هامة للكشف عن الحقيقة التاريخية وإعادة بناء أحداثها، لتظهر جلياً أمام المطلعين عليها، رغمًا ما بدا على الباحث من خلط في تركيب الأحداث بالصعود والرجوع مع الزمن في عرضه لهذه الأحداث بمقاربات ما بين ما وقع خلال القرن التاسع وخلال القرن العشرين، يرجع ذلك في نظرنا إلى تحمس الباحث لمعرفة الجريمة الاستعمارية عبر التاريخ الاستعماري كله في الجزائر .

ونستخلص في الأخير من قراءتنا المتواضعة، لبعض كتابات الكاتب الصحفي عمار بلخوجة، أنها كانت في صميم البحث العلمي والارتقاء إلى العمل الأكاديمي من خلال التهميش ووضع الإحالات، وهو أسلوب علمي اعتمد على منهجية البحث التاريخي بالاستناد على المصادر الأصلية، قلماً وجدناها في دراسات صحفية خلال فترة الاستقلال، وبالتالي فإن الباحث يستحق المكانة الهامة بين الباحثين في مجال التاريخ قدم لطلبة التاريخ وغيرهم من الباحثين في هذا الميدان، تصوره للجريمة الاستعمارية، وهي رد صريح على ادعاءات المشرع الفرنسي الذي حاول إيهام الجزائريين ونخبه المثقفة؛ ثقافة فرنسية أنه جاء لصالحهم، وأن لباحث عمار بلخوجة من الرعيل الأول الحامل للثقافة والأدب الفرنسيين وذو الثقافة المزدوجة، لم ينسلخ عن جلده وتاريخ وطنه، وواجه الاستعمار بنفس أسلحته، التي كان يخشاها الاستعمار نفسه من خلال سياسته التعليمية³³ الخجولة التي كانت قوانينها تمنع الجزائريين من مواصلة تعليمهم بالمدارس الفرنسية .

هوامش البحث:

¹-Pierre Montagnion, l'Armée de l'Afrique de 1830 à l'Indépendance de l'Algérie,ed ,pygmadion 2012 pp15-21

²- Bugeaud , la Colonisation En Algérie

³ - سفيان شبيرة : "دوافع و تبعات مصادرة الإدارة الاستعمارية الفرنسية للأملاك الوقفية في الجزائر "مجلة علوم الإنسان والمجتمع، تصدر عن جامعة بسكرة، العدد 10 من جوان 2014، صص 213-23

⁴- Amar Belkhdja , les Enfumades du Dahra ...

⁵ - ينظر عدة مراجع ودراسات لروولوبوسكي بالمجلة الإفريقية وكذا شارل حول الظهرة:

Richard(CH)Etude sur L'Insurrection di Dahra ed,besanvenz Alger 1846 pp13-18-

Busquet (Raoul), « L'Affaire des grottes du Dahra 19 -20 juin 1845 »in Revue Africaine , V51 , année 1907 , OPU, p p ,119-120-

⁶ - مصطفى الأشرف، الجزائر، الأمة والمجتمع ،ترجمة الدكتور حنيفي عيسى ،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983

⁷-Belkhdja Amar , les Grottes du Dahra ...p 9

⁸ - صحفي سابق بالمجاهد يقطن مدينة تيارت، كرس بحثه حول تاريخ الجزائر، خاصة في الفترة المعاصرة، له كتابات ودراسات حول مناضلين في الحركة الوطنية، أمثال علي الحمامي و صعود الوطنية الجزائرية وأخرى حول جرائم الاستعمار: منها محارق الظهرة والتاريخ الاستعمار، جرائم غير معاقب عليها و أيضا دراسات حول الوحشية الاستعمارية بإفريقيا وشهيد تاقدت علي معاشي وغيرها من الدراسات الفكرية و الانتربولوجية في مسار تاريخ الجزائر. وهو متقاعد حاليا يساهم في الحركة الثقافية و الفكرية بتيارت وغيرها من المراكز الثقافية الجزائرية و جل كتبه ،حررت باللغة الفرنسية و حسب حديثي معه، بأن أعماله ستترجم إلى اللغة العربية .

⁹ --Belkhdja Amar, Colonialisme , les Crimes Impunis ,Histoire , ed, Alpha ,Aler2013, 153-157

¹⁰ - ibid pp 30-46

¹¹-E . Péllissier de Reymond ; Les Annales Algériennes , TIII ; pp 167-168

¹² - محمد بليل: "محنة غار الفراشيجباولاد رياح من خلال المصادر الفرنسية " مجلة عصور الجديدة رقم 6 تصدر 2012عن مختبر تاريخ الجزائر، بجامعة وهران.

¹³ - ينظر مرجع عمار بلخوجة السابق الذكر: les Enfumages de Dahra , op cit p 43:

¹⁴ -E- Péllissier A « les Grottes du Dahra »in Revue Africaine V 51 , 1907 pp 120 -119

¹⁵-Amar Belkhdja , les Enfumades du Dahra ; op cit p 64

¹⁶-ibid p 56

¹⁷-ibid ,p59

¹⁸ - ينظر القصيدة كاملة في كتاب عمار بلخوجة السابق ذكره عن محارق الظهرة صص 101-110

¹⁹ - Amar Belkhodja , le Colonialisme ; les Crimes Impunis , op cit pp 127-215

²⁰ - Amar Belkhodja ;El Moudjahid 14 -01-1987,d'après son ouvrage ; colonisation...op cit pp9-13

²¹ -Ibid ,pp 14-17

²²-ibid p p 23

²³ - ibid pp 34-35

ويمكن المقارنة بما ورد في دراسات أكاديمية نقلا عن وثائق أرشيفية خاصة بانتخابات الجمعية الجزائرية و المجالس العامة في الجزائر ل :- محمد بليل، المجالس العامة وقضايا الجزائريين، ج2 دار سنحاق الدين بتدعيم وزارة الثقافة، 2013. - حمري ليلي، الجمعية الجزائرية و قضايا الجزائريين، رسالة دكتوراه بإشراف الأستاذ مهدي إبراهيم بجامعة وهران 2015.

²⁴ - Amar Belkhodja , colonisation , op citpp 44-45

²⁵-ibid ,pp 82-86

²⁶-ibid ,pp 98-101

²⁷ يراجع كتابنا حول المجالس العامة وقضايا الجزائريين ج 2، مرجع سابق فصل خاص عن قضايا الجزائريين الخاصة بالعمل النقابي داخل -المجلس العام لوهران.

²⁸ -Amar Belkhodja , Colonisation... op cit pp 117-126

قارن محمد بليل، المجالس العامة، ج 2، مرجع سابق.

²⁹ - Amar Belkhodja , Colonisation... op cit pp 132-133

³⁰ -Archives Nationale D'Outre Mer (AOM) ; b, N° 81F/878,les Incidents en Algérie Rapport du procureur général d'Alger au Ministre de la Justice et les gardes de seaux , Cf, Conseil .Général .département d'Oran , séance 16/10/1953, pp 154 - 157.

³¹ - ينظر كتابنا حول: تشريعات الاستعمار الفرنسي في الجزائر، القطاع الوهراني نموذج 1881-1914 وانعكاساتها على الجزائريين، دار سنحيقالدين بتدعيم وزارة الثقافة الجزائرية الجزائر 2013(مدخل الدراسة حول إشكالية التشريعات الاستعمارية في الجزائر)

³² - Amar Belkhodja, les Enfumades ...op cit pp103-110

³³ -انظر مقالنا حول السياسة التعليمية الفرنسية ما بين 1945 -1954 والتي تعكس تخوف الإدارة الاستعمارية من المثقفين ثقافة فرنسية، حيث لعبت النخبة المثقفة دورا بارزا في النهضة و النشاط الحزبي وكانت المؤطر للثورة التحريرية أمثال فرحات عباس الذي كان أول رئيس حكومة جزائرية مؤقتة و كذا مشايخ وعلماء الجزائر إضافة للمناضلين الحزبيين والنقائيين : محمد بليل : "السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر 1945-1954"مجلة الخلدونية للدراسات التاريخية والاجتماعية، العدد 7، 2015 تصدر عن كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية بجامعة تيارت .